ليلى المريضة فى العراق

للدكتور زكى مبارك

— ٧ —

وعند هذا الحد من الحديث تذكرت ليلى

تذكرت العبارة البغدادية الطريفة التى طلّت بها قلبي منذ أول زيارة ، فقد قالت حين رأتنى أهمّ بالرواح :

« فراقك صعب ، سيِّدى »

ورأيت من الخير أن أصرف ظمياء . وكانت لى سياسة أوحاها الشيطان ، فقد رأيت الفتاة تقص أحاديث الشيخ دعاس وزوجته مجلاء بحماسة سحرية ، ورأيتها تطنب فى وصف ابنتهما الجميلة ، تلك الفتاة التى اسمها درية ، وهو اسم لا أدرى كيف يلذع قلبي ، ولكن لا موجب للمضىّ فى سماع ما تقول ظمياء فى وصف درية ، فليس من الحزم أن تقول ظمياء كل ما عندها فى ليلة واحدة : وهل أضمن رؤيتها بعد ذلك إن تمّ هذا الحديث ؟ من الخير أن أصرف هذه الفتاة وهى فى نشوة الحديث فلا أتعب فى رَجْعها إلى منزلى حين أشاء

ولكن كيف أصرفها وقد استأنست كل الاستئناس ؟

يجب أن أصرفها بعلة طبية لتهيّأ للمرض ، فقد أمسيت أشعر بوجوب أن تصبح هذه الفتاة من مرضاى ؛ ولا بدّ للطبيب من مريض ؛ وستعافى ليلى بإذن الله ، فلتكن لى ذخيرة ألتمس بها البقاء في بغداد . وكذلك صوّبت بصرى إلى الفتاة وقلت :

ما هذا الذى أرى بوجهك يا ظمياء ؟

فانزعجت الفتاة وقالت بصوت مقتول : إيش بى يا عمّى ؟

فقلت وأنا أتكلف الحزن : سأخبرك يا بنيتى حين أجىء لعيادة ليلى . فاذهبي الآن واستريحى ، وتجنبى التعرض للتيارات الوجدانية

فخرجت الفتاة مذعورة لا تلوى على شىء . والجمال الساذج يفتن القلوب حين يكرثه الانزعاج

* * *

فراقك صعب ، سيِّدى

كذلك قالت ليلى

فراقك صعب ...

أى والله ، فراق صعب ، يا ليلى ، وفراقك أصعب . فمتى يكون اللقاء ؟

وأويت إلى فراشى فى ليلة باردة لم يدفئها غير الذكريات . ثم خرجت مبكراً فى الصباح فرأيت بغداد تموج بالحديث عن ليلى والدكتور زكى مبارك وانتخاب مجلس النواب

أعوذ بالله !

ثم سألت فعلمت أن مجلة الرسالة نشرت كلمة عن ليلى المريضة فى العراق ، فتذكرت الخطاب الخاص الذى أرسلته إلى الأستاذ الزيات منذ أسابيع . وما أتهم هذا الصديق بسوء النية فى نشر ذلك الخطاب ، فهو رجل عاش سنين فى بغداد ولم ير ليلى بعينيه ، فهو يحب أن يراها مع قرائه بأذنيه ، تأسياً بقول الشريف الرضى :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى ... فلعلى أرى الديار بسمعى

ومضى يوم ، ويوم ، وأيام ، وأنا طعمة الألسنة والعيون فى كل مكان

وكانت فرصة تذكرت فيها ما جنيت على نفسى فى السنين الخوالى ، فقد كنت عدوّ نفسى من حيث لا أريد . أنا الطبيب الذى أضاعه الأدب فلم يبق أمامه غير احتراف الصحافة والتعليم . ولو لا جناية الأدب لكنت اليوم عميد كلية الطب بالجامعة المصرية ، وأنا عند المنصفين أعرف بالطب من العميد المعروف

تذكرت وتذكرت ...

تذكرت العيادة التى أقمتها فى الزمالك مع زميلى الدكتور أديب نشوان ، وهى عيادة كان يُرتجى أن تكون مضرب المثل فى عالم الطب ، ولكن مقالاتى فى جريدة البلاغ جنت على فلم يعد أحد يصدق أننى طبيب

وتذكرت مجلة (طبيب القلوب) وكانت والله مجلة لطيفة ، ولكنى تفلسفت فى الدراسات النفسية ، ثم ما زلت أوغل فى التفلسف حتى حسبنى القراء من العابثين ؛ وعطّلت المجلة ، ولا تزال إلى اليوم فى نزاع حول ما تراكم عليها من ديون

وقد نجا زميلى بجلده ، وكيف لا ينجو وهو جبان ! وبقيت أنا أضع الدينار بجانب الدينار لأتخلص مما جناه قلمى البليغ !

يرحمك الله يا أبى ! فكم نصحتنى ولم أنتصح ! كم قلت إن الطبيب لا يليق به أن يتحدث فى أشعاره عن الخدود والعيون والنحور والثغور ، ولا ينبغى له أن يتفجع على مواسم الروح فى

مصر الجديدة والزمالك . ولكنى أحسنت الظن بالناس فانطلقت أشدو وأترنم ، فكان جزائى أنى أعيش عيش المشرّدين بين القاهرة وباريس وبغداد

تذكرت وتذكرت لو تنفع الذكرى !

تذكرت العيادة الجميلة التى أقمتها فى شارع فؤاد بعد أن خُرِّبت عيادتى بشارع المدابغ بسبب السيدة (ن) ،وكانت عيادتى بشارع فؤاد تبشر بمستقبل رائع ، فقد كانت مجهزة على أحدث طراز ، وكان فيها ممرضة جميلة تخلب عقول النساء قبل أن تخلب عقول الرجال ؛ ولكن الله ابتلانى بطائفتين من الناس كانوا السبب فى خراب تلك العيادة الفيحاء : الطائفة الأولى جماعة الأصدقاء الذين يرون من حقوق الصداقة أن أدواتهم بالمجان . أما الطائفة الثانية فهم الأدباء الذين جعلوا عيادتى سامراً يلتقون فيه كل مساء . وفى تلك العيادة تألفت رابطة الأدب القديم وجمعية عطارد وأصدقاء أفروديت . وفى تلك العيادة قامت المعارك بين القديم والجديد ، وفيها نظّم أول مؤتمر لكليات الجامعة المصرية ، وفيها أسست نقابة المحبين

وما لى أكتم حقائق التاريخ ؟ إن هذه المذكرات لن تنشر فى حياتى ، ولن يراها الزيات ولا غير الزيات . فلأدوّن فيها كل شىء وليقل الناس بعدى ماشاءوا ،فسأكون فى شغل عنهم بما أعد الله للأشقياء من نعيم الفراديس . وهل يُرضى الله فى كرمه أن نشقى فى الدارين ؟

كانت عيادتى بشارع فؤاد هى الملاذ لكل أديب لا يجد فى جيبه خمسة قروش يجلس بها جلسة لطيفة في مشرب ... أو مشرب ... أو مشرب ... ولا موجب لذكر أسماء هذه المشارب فأصحابها لئام لا يستحقون الاعلان ، وأخشى أن يعيشوا بعد أن أموت . أليس فيهم الرجل اللئيم الذى استقبل فى حانته صديق.. فلما انصرف سألنى عن اسمه فطويته عنه . وكان اللئيم يريد أن يعرف ما هو اسم ذلك الشاب الذى يخاصر تلك الشقراء ؟ وكان ذلك الصديق من كبار الموظفين بوزارة . . .

إن القاهرة ليس فيها مشرب أمين يلقى فيه الرجل حبيبته وهو فى أمان من عيون الرقباء

وهذا الكلام الذى أدونه فى مذكراتى هو السبب فى خرابى ، فأنا طبيب دقيق الإحساس ، ودقة الإحساس فى زماننا من أشنع العيوب . ومن حسن الحظ أن هذا الكلام سيُطوى إلى حين ، لأنى سأدفن مذكراتى بالمكتبة العامة فى بغداد ، ولن يطلبها مجلس كلية الآداب بالجامعة المصرية إلا بعد مئات من السنين . وستكون لكلية الآداب جهود مشكورة فى درس النثر الفنى في الأدب الطبى !

ألا فليعلم الجمهور الذى يخلفنا بعد مئات السنين أن الأدب أضاع ثلاثة من الأطباء كانوا يعيشون في مصر ، وهم محجوب ثابت ، وأحمد أبو شادى ، وزكى مبارك

ولكن هل ضاع محجوب ثابت ؟ وكيف ؟ لقد اشتغل بالتمثيل السينمائى فنجح أعظم نجاح . وقد تفضل سعادة الأستاذ طه الراوى وكيل وزارة المعارف العراقية فدعانا منذ ليال لتناول طعام العشاء . وعلى المائدة تحدث الأستاذ منير القاضى فأشاد بنبوغ محجوب ثابت فى التمثيل وجزم بأنه أبرع من الممثل زكي طليمات . وعندئذ أحسست الغيرة تلهب أحشائى ، فهذا زميل أضاعه الأدب وحفظه التمثيل

وأبو شادي أخيته المعامل البكتريولوجية ، فهو يفحص (عيّنات) الجراثيم ثم يخلد أصنافها بالشعر البليغ . أما زكى مبارك فقد أضاعه الأدب جملة واحدة . وإنى لأخشى ألا يستمع إليه أحد إن وصف لمريض شربة زيت ؛ ومع أنه ظفر بألقاب كلية الطب وكلية الآداب فقد ضاع فى الكليتين ، فهو عند كلية الآداب رجل طبيب ، وعند كلية الطب رجل أديب ، وعند الله جزائى !

* * *

ومما زاد البلاء أننى صرحت بأن ليلى تقيم فى شارع العباس ابن الأحنف ، وهو شارع معروف فى بغداد ، فما الذى كان يمنع من اختراع اسم موهوم أضاف به أهل الفضول ؟ كذلك أمسيت فى حيرة وارتباك ، فما توجهت إلى ليلى إلا رأيت الشارع يعجّ بالمتطلعين . ويحسن النص على أن المدنية الحديثة جنت على بغداد أعظم جناية ، فليس فيها شارع ولا حارة ولا درب ولا عطفة إلا وهو مضاء بالكهرباء ، وبذلك ضاع علينا الحظ الذي كان يتمتع به المتنبي إذ يقول :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغرى بى

وفى بغداد شرطة لا تعرف التغافل الظريف الذى تصطنعه شرطة باريس . وليلى نفسها لا تخلو من عنجهية البدويات ،

وأنا نفسي لا أحسن الصبر وهو أقل ما يتخلق به الأطباء

وفي مممة هذا الكرب وقع حادث ظريف ، فقد تلقيت صكا من مجلة الهلال على بنك إيسترن في بغداد ، تلقيته في ساعة ضيق ، فمضيت إلى البنك لأتقاضاه وأنفق محصوله على نفسي وعلى بعض مرضاي من اللاح .

ولكن إدارة البنك رفضت تسليم المبلغ الميمون وقالت : هات جواز السفر ، أو أحضر رجلاً يعرفك . فقلت : أما جواز السفر فلا سبيل إليه لأن المطر ينهمر والطريق كله أوحال . وأما البحث عن رجل يعرفني فهو سهل ، ولكنه لا يتم بدون فضيحة البنك . فقال فريق من الموظفين : وكيف ؟ فقلت : لأن مما يفضح بنك إيسترن أن يجهل زكي مبارك وهو رجل يشار إليه بالبنان في كل أرض ، وفي صدره ودائع أغلى وأنفس مما تحفظ أقوى الخزائن في أعظم البنوك . وعندئذ ضج موظفو البنك بالضحك والقهقهة الساخرة ؛ ولكن أحدهم ترفق وقال : أنت الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى والذي ينشر نتائج بحثه بمجلة الرسالة المصرية ؟

فقلت : نعم !

فالتفت ذلك الموظف إلى زملائه وقال : يا جماعة . هذا هو الطبيب الذي جاء يفتش عن ليلى !

وما كاد يفوه بهذه الكلمات حتى أقبل الموظفون لمصافحتي . وفي لحظة واحدة تسامع من في البنك بقصتي ، وقد استظرفوني جداً ، بالرغم من أني أحمل أنفاً أعظم من أنف ابن حرب ، كما قال الأستاذ حسن فهمي الدجاني ، زميلي في أيام البؤس ، يوم كنت تلميذ الشيخ سيد المرصفي بالأزهر الشريف . وصحبني ذلك الموظف إلى مكتب المدير فشربت عنده كأساً من قهوة أبي الفضل لا قهوة أبي نواس . ولم يفتني أن أسأل عن اسم ذلك الموظف الأديب الذي يقرأ مجلة الرسالة وهو في البنك — وتلك إحدى الأعاجيب — فعرفت أنه يسمى ألبرت داود يعقوب ، فمضيت وأنا أرتل الآية الكريمة : « يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين »

* * *

فقد نفعني الأدب في بنك إيسترن ، فهل ينفعني عند ليلى ؟

وهل نفعني الأدب عند عروس دمياط حتى ينفعني عند عروس بغداد ؟

أمري إلى الهوى !

* * *

ظهر المقال الثاني في مجلة الرسالة وفيه كلام عن وزير المعارف ورئيس الوزراء ، وقد صارحني الأستاذ عبد الجليل الراوي بأن لذلك عواقب ...

فليكن هذان المقالان كل ما أرسل إلى الزيات ، ولتكن هذه الحوادث بداية لرجوعي إلى العقل ، فأنا لا أزال شابا ، ومن السهل أن أحسن سمتي وأن أعيد تنظيم عيادتي في شارع فؤاد ، فلولا جناية الأدب لكنت اليوم أغنى الأطباء

على أنه لا موجب للندم على المقالين اللذين نشرتهما الرسالة ، فقد أصبح العراق جذوة وجدانية ، وصار اسم ليلى بداية كل حديث ونهاية كل حديث في الأندية والمعاهد ، بغض النظر عن الفتنة التي ثارت بسبب ليلى في الرستمية ، وبغض النظر عن المشاجرة التي وقعت من أجلها في كلية الحقوق ... وينبغي أن أسجل أن هذين المقالين جذبا الأنظار إلى المؤتمر الطبي ، فقد حدثني الدكتور حسين كامل أن طلبات الاشتراك بلغت المئات في أسبوع واحد . والسبب لا يخفى على من سيقرأون مذكراتي في السنين المقبلات ، فقد صار مفهوماً أن ليلى ستحضر جلسة الافتتاح ، وإلى ذلك أشارت جريدة البلاد وجريدة العقاب وجريدة الرأي العام وجريدة الهدف ، وأنكرت ذلك مجلة الكفاح وقالت : إنه لا يليق بأمة اسلامية أن تعرض امرأة لعيون الناظرين ؛ وفات مجلة الكفاح أن المؤتمر لا يعقد هذه السنة في بغداد إلا بسبب النظر في أمر ليلى المريضة في العراق

ولكن هل أسمح بخروج ليلى ؟ هل ضاقت الحيل حتى أمكن الناس من رؤية ليلى ؟

رباه ! لقد بدأت أشعر بالغيرة على ليلى ، فهل تكون الغيرة نذيراً بهبوب عاصفة الحب ؟

أمري إلى الهوى !

* * *

نشرت جريدة البلاد في أبرز مكان كلمة تحت عنوان : « أنشودة اللقاء »

ثم قالت إنها تلقت قصيدة موجهة إلى بتوقيع (ليلى المريضة) وأنها حولت القصيدة إلى الدكتور زكي مبارك راجية أن يكون